**المحاضرة السادسة :علاقة النقد بعلم التاريخ**

يعد العصر الحديث فتحا جديدا، على إثره تم الطعن في كثير من المعتقدات التي كانت سائدة، و أهمها تلك المتعلقة بخرافة التفكير و سذاجته و تمركزه حول الميتافيزيقا،و المعروف أن من أحيى الحضارات بعد الموات هو بعث أفكار فلاسفة اليونان الذين كانوا في عصرهم شواذ عالمهم لامتناعهم عن التفكير بالاعتماد على النحو الأسطوري و الماورائي، و نحو منحى السبل الأكثر قابلية للتصديق لاعتمادها على عالم الحس، و الأمر بالنسبة لعالم الحس/ الواقع متعلق أكثر بأرسطو، لأن سبل البحث عند أفلاطون تركز على العالم المثالي، و رغم ذلك تنسب سبل التفكير لكليهما و حجتهم في ذلك البحث بوساطة العقل المنظم، و هو أحد أهم المحاور التي تحدث عنها أستاذهم سقراط.

والعودة لمثل هذه المدونات و إعادة قراءتها أحدث الانقلاب و التغيير الكثير في جميع المجالات، و في كل اتجاه أدركته سبل التفكير البشري، و كان العلم التجريبي هو أكبر ما حققته هذه المدونات من إنجاز بقي يعود بالفضل على البشرية كلها، فرانسيس بيكون Francis Baconو غاليلوGalileo و جون لوك John locke و دفيد هيومDavid Hume ، هؤلاء كانوا بوابة العصر الجديد بما دحضوه من أفكار أسطورية / دينية من جهة، و من جهة أخرى بما أحدثوه من جديد، إذ صار لكل ما في العالم تفسير و تعليل و تقديري زماني و مكاني، بدل التفكير الأسطوري الذي يخضع كل ما في الوجود إلى تفسير ميتافيزيقي يتعلق الأمر فيه بمجموعة من القوى الخارقة، يكون الإنسان فيها عبدا لهذه القوى، و ضعيف أمامها بطريقة تلغي قدرته على التفكير.

وفي مقابل هذا جاءت بحوث العصر الحديث من أجل أن تثبت سيادة الإنسان و مركزية عقله(logos)، وهو تطور لفكرة العقل المنظم كما وردت من قبل، و كل هذه المستجدات عملت على إحداث التغيير، تغيير طال فكرة الذوق و تذوق الأعمال الأدبية الذي كان أساس الحكم على جودة أو رداءة العمل الأدبي، و هو الشعار الذي كان سائدا أيضا في العالم العربي و بدايات النقد العربي القديم، و تأثرا بالفلسفة التجريبية ثم وضع حد لمعيارية التذوق و الالتفات إلى ضرورة وضع القوانين و القواعد تشبها في ذلك بالعلم التجريبي، و ضرورة وضع هذه القوانين هو ما أرشد العالم إلى طريق المنهج سبيلا في الدراسة.

فصار من الضروري التخلص من التقييم العفوي و استدعاء الأدب إلى حقل العلوم التجريبية، وسيطهم في ذلك المنهج بما هو سبيل مشترك بين كل المجالات على اختلافها، و قد تولى كما في كل اتجاه مجموعة من المفكرين على عاتقهم مهمة البحث عن قواعد و سبل للدراسة العلمية لهذا النص الأدبي الذي أغرقت الذوقية في اختزاله، و اختزال عناصره، و الحكم عليه دون مراعاته، بل بالعودة لذاتية الناقد التي تحرمه حقه، و القول ببدايات التفسير العلمي للأعمال الأدبية هو طرق لمنهج النقد التاريخي سبيلا و طريقا للدراسة، هذه الدراسة تعيد استثمار وسائل الاستقراء و الاستدلال .. كما أرساها البحث عند أرسطو و أفلاطون و كما طورته البحوث العلمية فيما بعد.

تؤمن هذه الدراسة بالعلاقات الخارجية للأعمال الأدبية، و أنها نتاج محيط و بيئة خارجية، لا يمكن تفسير هذه الأعمال إلا بالعودة لهذه الظروف مجتمعة، و ينتمي منهج النقد التاريخي من حيث تصنيف المناهج إلى المناهج السياقية التي ترجع الأدب إلى سياق خارجي محدد، و استنباط السبل العلمية في الدراسة هو دعوى الخروج عن السبل الذوقية القاصرة و العاجزة و البعيدة عن النص الأدبي في ذاته، و تنتقل الدراسة من النظرة الكلية التي تستدعي الذوق إلى النظرة الجزئية التي تتولى مهمة تتبع الظاهرة عن طريق الاستقراء و الاستدلال الذي تكون وسيلته العلمية.

والقول بهذه الظروف مجتمعة حول سبل الدراسة في العصر الحديث، ليس إلا مرحلة أولية تلتها مراحل عديدة طورت في العلم انطلاقا من صورته الأولية كما وردت عند أرسطو في الفلسفة التجريبية سعيا منها للوصول إلى اليقين عن طريق تفسير النتائج المتوصل إليها، و منهج النقد التاريخي ظهر في العالم الغربي و انتقل إلى العالم العربي عن طريق الترجمة و أبواب التواصل التي فتحت بعد الحركات الاستعمارية و البعثات، و صار النهج على طريق الغرب منتهى التفكير عند العرب، خاصة بعد زوال سبب الإبقاء على النقد الذوقي عند العرب، و الأمر متعلق أولا بفقد الصفات التي كانت تميز الناقد عن غيره و اختلاف صورة اللغة العربية عن أصلها الفصيح والسليم، و صار الجمع بين شاعر و ناقد بالمواصفات القديمة معادلة صعبة التحقيق لزوال أسبابها، و زوال أسباب ارتجال الشعر مع إمكانية تدوينه.

فصار الاختلاف هو سبب الانفصال من جهة عن تاريخ النقد العربي، سوى بعض صور إحياء البلاغة والنحو، و يكون الانبهار بالعالم الغربي هو مبرر الأخذ عنهم، و مسايرة آخر ما وصلت إليه البحوث عندهم لتفوقهم الحضاري الذي صار واقعا مفروضا سرعان ما أدركه حتى دعاة المحافظة و الإصلاح، الذين صاروا بدورهم من دعاة الالتحاق بركب الحضارة العلمية في الغرب،

و عليه،يرتبط النقد التاريخي بسبل الفلسفة العلمية التجريبية التي ظهرت في بداية العصر الحديث كصورة استثمرت سبل أرسطو في الاستقراء و الاستدلال، و الحديث عن هذا النوع من النقد هو استحضار لمفهوم المنهج بوصفه ذا دلالة مزدوجة تتعلق الأولى بالمنهج الوصفي و الثاني بالمنهج التاريخي.

تنسب البدايات الأولى لاستخدام المنهج التاريخي في مجال النقد لكل من سانت بيف و تين و برونتيير Brundtaar.. و قد حاول كل واحد منهم إحداث الجديد بإدخال العلم التجريبي في مجال النقد رغبة منهم بتفسير الأدب بالاعتماد على الظروف الخارجية التي يتدرج القول فيها باختلاف العصور، و كان العالم العربي كالعادة في استقبال هذا الجديد تأثرا بهذه الشخصيات الرائدة، من بينهم نذكر طه حسين في كتابه تجديد ذكرى أبي العلاء المعري و في الأدب الجاهلي، صار الأدب فيها رؤيا شاملة تحكي عن حياة و أخلاق و طبائع و أمزجة شعوب بأكملها دون تهميش أهم ما يميز العمل الإبداعي و هو الجانب الوجداني.

**نصوص و تطبيقات:**

يقول طه حسين" ... نحن بين اثنين، إما أن نقبل في الأدب و تاريخه ما قاله القدماء، لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذي لا يخلو منه كل بحث و الذي يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعي أو أصاب، ووفق أبو عبيدة أو لم يوفق، و اهتدى الكسائي أو ضل الطريق، و إما أن نضع علم المتقدمين كله موضع بحث، لقد أنسيت، فلست أريد أن أقول البحث و إنما أريد أن أقول الشك، أريد ألا نقبل شيئا مما قال القدماء في الأدب و تاريخه إلا بعد بحث و تثبت إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان، و الفرق بين هاذين المذهبين في البحث عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئنان و الرضا، و الشك الذي يبعث على القلق و الاضطراب و ينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار و الجحود، المذهب الأول يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير و لا تبديل و لا يمسه في جماله و تفصيله إلا مسا رفيقا، أما المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأسا على عقب، و أخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئا كثيرا"[[1]](#footnote-1).

\*- عن أي منهج يتحدث طه حسين في هذا النص.

ويقول أيضا" و أول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي و ألححت في الشك، أو قل ألح علي الشك، فأخذت أبحث أفكر و أقرأ و أتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينا فهو قريب من اليقين، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، و إنما هي منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين و ميولهم و أهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين، و أكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا و لا يدل على أي شيء، و لا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا الشعر الجاهلي، و أنا أقدر النتائج الخطرة لهذه النتيجة و لكني مع ذلك لا أتردد في إثباتها و إذاعتها، و لا أضعف عن أن أعلن إليك و إلى غيرك من القراء، أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء، و إنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين و المحدثين والمتكلمين"[[2]](#footnote-2).

\*- ناقش الاتجاه الذي سلكه طه حسين في قراءة النصوص الجاهلية.

1. -طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار الندوة، 1926، ص 3. [↑](#footnote-ref-1)
2. - المرجع نفسه،6. [↑](#footnote-ref-2)